المجلس الأعلى للثقافة

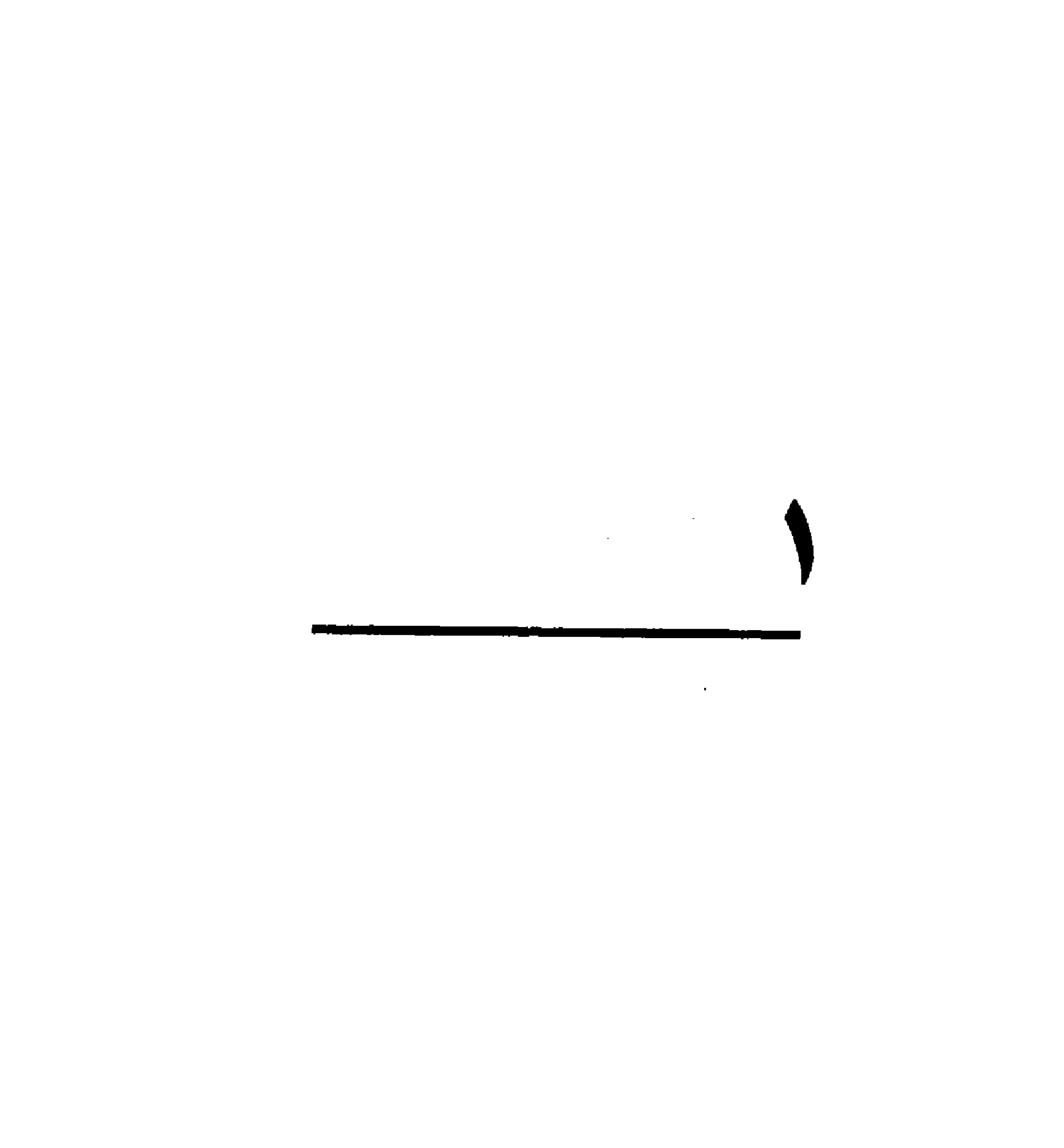
الكتاب الأول

حدث سرا

قصص قصيرة

أمينة إبراهيم زيدان





١

- أستريح قليلا ...

أدار رأسه نحو وعبر البيوت المتقاربة ، قتامة أفاريز شرفاتها الخشبية تلتمع ، ظلمة الليل تنسحب خلال خصاص نوافذها المغلقة .

آلمته انحناءة ظهره ، استقام ، اتكأ بجنبه على يمناه ، شعر بعظامه تخور ، أخذ نفسا عميقا زفره بصعوبة .

- أراه وأعود .

خلال شبورة رمادية ، غطى الضوء حدود المكان ، الصدفات الفضية الدقيقة تطابقت فوق سطح البحر ، سرت فى جسده رجفة قوية أحاط صدره بذراعيه ، ضغط عظام كتفه الصدئة ، شد جلبابه ... أحكم غلق أزراره ، أحاط الصقيع بوجهه ، عاود السير والبرد يتخلل أصابعه .

عيناه تمسحان سطح الرمال المهشم ، والذى تفتت وغار تحت قدميه .. اعتصر الزيت والماء والرمل .

لاينظر حوله ، يملأه شعور بأن الحياة تدب فى كل مكان ، يخوض فى لزوجة الرمل الطينى .

- العطن بلغ حوافه .

غارت عصاه وكاد يتهاوى ، تمالك نفسه وثبت عصاه ثم انتصب شدد قبضته . تابع خنفساء سوداء لامعة ، خرجت من الفجوة الصغيرة قفزت خارج الماء الممتزج بالزيت ، سارت نحو البحر ، اختفت تحت الماء .

- الحشرات تملأ جوفه .

جر قدميه خلف عصاه ...

.. لاأحد غيرك يفعلها ، ليلك طويل وصباحك غام فى قاع القارب ، حوت عجوز ملفوظ ، يلفظ أنفاسه على الشاطئ ، ارفع قاربك ، طهره من الزفت ، من يمنعك ، تشققات أخشابه يواريها الدهان ، خط أبيض يتوسط زرقة رائقة ، أقفز بداخله ، تغيير الاسم سيوقف تقادمه ، المدن تغير أسماءها ، الأشياء لاتفنى إنما تتحول دوما ، وأنت تتحرك بين حجرات البيت ، ومن البيت إلى الشاطئ فى الصباح وعند المساء ، كلما اقتربت تملكتك الوحشة والخوف تشعر بكيانك يتوارى بين تجاعيد سطح البحر ، ومساحات الخوف متسعة تضلل قدرتك .. أليس غريبا أن تتكرر نفس الرؤيا ، وأجدنى فى صمت الظهيرة الحارق أجدف غير عابئ بزفرات الموج وصفعاته لجانبى القارب قوية صادة فى اتجاه خط التقاء السماء بزرقة البحر البللورية ، ثم أرى البحر متصلا بالسماء من دونى .

تدوى سرينة المصنع ، تلف الصمت ، كل شئ يبدو زاعقا ، البحر الطين ، الهواء ... انتفاضة جلبابه قوية فوق ساقية .

رف طائر أسود بجناحيه ، طار بعيدا عن القارب القاتم تحت آخر سحابة نهار رمادية .

١

أسلمت رأسي لوسادتي ، مرت بي لحظات الأرق الصعبة ، غطت في نومي ، استيقظت لأجدني مازلت محاصرا ، في الزمن ذاته والمكان المحدد ، لم يكن من عادتي نزع الأيام من فوق جداري ، ولكني فعلتها ، وقبل أن أغمس وجهي وجسدي في الماء البارد وأستسلم للرعدة تسري في كياني ، وبينما أزرر قميصي ، طفر إلى بالي خاطر أن أنظر في نتيجة الحائط ، لم يكن ملحا ، لم أمنحه اعتبارا حقيقيا ألقيت نظرة على وسادتي بنقوشها الزرقاء المتشابكة ... آلمتني الاهتراءات المتباعدة .

٢

لما أصبح النهار قصيرا ، وأمسى الليل طويلا ، قبعت في شرفتي أنتظر ، قلت لنفسي إنه يعلم أني أخشى ليل الشتاء ، تفزعني أصداء الصمت فيه ، وقلت سيأتي حتما يحل هذا الخناق الجاثم فوق صدري .

قطعت شوطا طويلا من الزمن ، ولم ينقص من الليل شئ .

٧

درجا معا عدة سلمات ، ارتفعت حولها نباتات صفراء جافة شائكة . مرا بدهليز طويل ، بدت له خلاله حجرات كثيرة ، متقابلة مغلقة ، جذبها إلى داخل الدهليز . صمت أنفها رائحة معتمة داكنة تراجعت ، تنشقت نفسا نقيا طويلا ، استندت إلى الحائط عند آخر سلمة ، مال عليها بوجهه ، غامت ملامحه الرائعة فى عينيها .. طبع فوق جبينها قبلة صغيرة ، أحبته .

رفع رأسه ، عيناه بدتا لعينيها غائمتين خلف حمرة شديدة ، هوى على كتفها برأسه .. بكى ..

لم تعد تحبه

آخر شتاء حزين

أمـام الخـور القـديم ، استكن إلى جدار بناية مـتطرفـة ، تشـمم عـتـاقـتـهـا ثم جلس إليـهـا ، رفع وجـهـا أوشك على الاسـوداد تحـسس بأطرافه المتسخة لحية طويلة خشنة مدد عينين مشوشتين إلى الفلايك الملقاة على الكورنيش ، حاول استرداد ذكرياته ، تنفس بعمق ، تناهت إلى حسه رائحة الخشب القديم الممزوجة برائحة المياه العطنة ، أحب الرائحة ، اسـتزاد منها ، شعـر بها تجرح أنفه ورئتيه ، لملم أطرافه البالية ، تكوم على نفسه ، دس رأسه بين ركبتين جافتين ، نظر بحزن إلى الليل .

تخطى بوابة البـيت ، انحـرف يمينا بجـوار عـدادات الكـهـربـاء السوداء ، فتح بابا خشبيا صغيرا ، زادت انحناءته تحت السلم ، انحنى أكثر ، خلف الباب سرير حديدى مرفوع فوق الحائط ... نصب سريره على أرضية الحجرة الأسمنتية ، فرد فوقه قطع الكرتون الثقيلة . توسد ذراعه والتـحف ببطانيـتـه الصوفـيـة الترابيـة اللون والرائحة ، حدق طويلا فى الكوة المستديرة التى تعلو الباب الخشبى ، رأى نفسه يرتدى ثوبا كهنوتيا مشدودا عند الخصر بمشد أخضر حينا وأسود حينا آخر ، ويبدو فى حين آخر بغير لون أو بلون قاع الفلوكة الملقاة كمحارة عطنه فوق الشاطئ الجاف للكورنيش .

الخطوات الوالجـة عـبـر بوابة المنزل خطوات قـوية تمسح الدرجـات الثلاث .. واحدة اثنتان ...ثلاث خطوات ثم حفيف هادىء !

فى الشتاء تتصل الأيام ، فلا تتسلل خيوط الأشعة الضوئية عبر الطاقة التى تعلو باب غرفتى ، ولايغمر الضوء وجهى معلنا عن نهار آخر ...

كان يضع أبناءه الواحد تلو الآخر فوق المذبح ، يصب فى آذانهم التعاويذ والشعارات ، طفولية كانت أجسادهم ، أما وجوههم فكانت لرجال بشوارب خفيفة مشعثة .

سقط فوق إحدى عينيه سرسوب ضوء خافت من ثقب الكوة المستديرة ، شعر بظهره يكاد يلامس أرضية الحجرة الباردة ، حرك ساقيه المثقلتين ، بدا لنفسه سعيدا وهو يقدم أولاده قرابين فوق المذبح الأسود الغليظة لزوجته ، رآهم يمتزجون فى اللزوجة العفنة ، وينسكبون كسائل أسود غليظ .

تقافز فأران ، سمع ارتطامهما اللدن بالجدار ، رفع رأسه ، نظر تحت قدميه ، كانت اللفافة الورقية مفتوحة ، بعنف التقط بقايا الخبز الجاف ثم ورقة تشمم فيها رائحة الجبن .

طوح الخبز الجاف على طول ذراعه ، ارتطم بالحائط ارتطاما خشنا ثم سقط على الأرض هشيماً متناثراً . توقف الفأران عن عراكهما حوطا كسرات الخبز ، تابع بسمعه الصوت الصادر من قضم الفأرين للخبز الجاف .

سرى الشتاء فى أوصاله ، شعر كأنما تراكمت فوقه سنوات عديدة ثقيلة ، جافة جفاف كسرات خبز قديمة ، حاول أن يزيح هذه الأثقال دون جدوى . كانت تثقل على صدره وكتفيه ، وخصره وساقيه ، وأخير تحول الثقل إلى رأسه فاستسلم وهو يشعر بأنه يتهاوى ببطء إلى مالانهاية .



تقصى أثـر ميت

إيسا الصغيرة والرائحة :

تقلبت فى فراشي ، سددت وجهى فى نعومة لحافى الصوفى الداكن ، حدقت في دياجيره المتطابقة كمن يغرق . غرقت فى زحمة رائحته التى انبعثت حية من تحتي ومن فوقى ، وانبثقت من داخلى قوية فجة ، وتتابع شهيقى يزدرد الرائحة ويدسها فى أحشائى التى كانت تضطرم وتتأرجح بأثرها .

رغم ثقل الشتاء وزخمه ، انبعثت الرائحة مخترقة السياج الجليدى اللامرئى .. فريضة الشتاء على الكون ، كانت قوية ممتدة متجددة لانهائية ، ارتبطت بالغياب المتقادم لخفيف الأقدام الهادىء ، وبافتقادى للحوار الفردى المصاحب لخطوات القدمين ، وحنينى لقطعة الشيكولاته التى تدس فى يدى من حين إلى آخر . أعطانى قطعة الشيكولاته فتحتها ، كانت شبه مكورة مثل وجه رجل حزين ، سألني وهو يمرر كفه فوق شعره الرمادى ضاغطاً على خصلاته المنثورة كمظلة .

- هل معك خمسون قرشا ورقية ؟

ركضت فوق درجات السلم ، دفعت بابى ، دخلت حجرتى ، بينما قطعة الشيكولاته تذوب فى فمى ، كان يقف عند البسطة التى تفصل بين الطابقين الأول الأرضي والأول العلوى ، متكئا بخصره ويده على

الأفريز الداكن ... عدت إليه بالعملة الورقية وأنا أمسح بأطرافى الخط البنى الذى سال من فمى فوق ذقنى ، تناولها منى وتابع سيره ، سرت خلفه وأنا أقضم حبة البندق .. حشو الشيكولاته .

كان الباب مفتوحا ، دخل بكتفه ، دفعت الباب ، اصطدمت برائحة نفاذة ، دخلت ، تعثرت فى تل من ردم التراب المختلط بقطع بلاط قديمة مخلوعة من الأرضية التى بدت كالمدق الترابى القذر الذى يفصل البيت عن البناية المجاورة .

كانت يايات المقعد تنسل من كسوته القطيفية التى ساحت ألوانها وامتزجت بالتراب المطبق على المكان كله . نظر إلىّ وأنا أحاول إعادة البايات إلى مكانها فى المقعد وأدسها بالقش ، وضع العملة الورقية فوق منضدة خشبية ذات أربعة قوائم طويلة تترنح عتاقة ، سلط ضوء المصباح اليدوى فوق المنضدة .

- انظرى إلى الحارس الفرعونى الواقف داخل عملتك ...

إلى جانب عملتى الورقية ، كانت هناك عملات أخرى عديدة فوق غطاء المنضدة البلاستيكى الذى تغرقت نقوشه بين الأتربة وندف الملاط الأبيض المتساقط من سقف الحجرة المهترىء .

- الحارس هنا ، غير الحارس هنا ، غيره هنا ، غير هنا ... الفرعون الكبير يبدل الحارس كل مدة .. لأنه لايثق بأحد .

قال ذلك ثم وضع المصباح فوق المنضدة ، وأعطانى عملتى الورقية

نقلت عينىّ من عملتى إلى الورقات المصفوفة ثم إليه وهو يرفع أكمامه ويجثو على الأرضية المنزوعة البلاط ، ويحطم باقى البلاطات التى لم تنتزع بعد .

من السرسوب الأولى للرائحة المندسة فى جملة الروائح المعتادة أدركت أن الأمر متعلق به ، حتى أن طيفه لازمنى ، ملازمة الرائحة للجدران والستائر وقطع الأثاث الخشبية فى بيتى .

أمام بابه الخشبى أروحُ وأغدو ، وكأنى حارسه ذو الإزار الفرعونى ، أقف أمام الباب الخشبى المغلق ، ألصق أنفى بشقوقه الصغيرة ، أجذب الرائحة ، أدسها فى أعماقى ، أنفث فى الشقوق

أرد مالم أستطع إخفاءه من الرائحة إلى الداخل ، وأنا أشعر برائحته رسالة مبثوثة إلىّ وحدى دون باقى البشر .

كنت أطرق الباب ، طرقات خافتة أصحبها بنداء أكثر خفوتا

عيناى على الضوء الذى يغطى سطح زجاج الكوة الدائرية ..

- توفيق ... توفيق ..

وضعت ملعقة الطعام بين ضفتى الباب ، جذبتها إلى الخلف

رأيت أمه بثوبها الضيق الذى كغابة صاخبة ، وشعرها الملامس لعنقها بالكاد ، تسوق أعوامه الأربعين ، بعد أن حممته ولفته داخل منشفة

بيضاءكبيرة ، كان يسير على الأرض القذرة حافى القدمين مبلولهما... أول مرة أرى قدميه بدون الحذاء الكبير ذى الرقبة العالية ، كبيرتين كانتا ، تنتصب منهما ساقان مقوستان ، تتساقط قطرات الماء من شعره وجسده لتذوب فى نسيج المنشفة .

نظرت أمه فى عينىّ وسألتنى ، قلت لها ..

- جاء رجلان يرتديان نظارات طبية ، سألا عنه (أشرت إليه) وقد ظناه ميتا داخل الشقة . سألتني وهى تتأمل أدائى وحركة يدى وشفتى وهزة زندى ..

- ألم تعرفى من هما ؟

- أحدهما أنحف من الآخر ، تشمما الباب ورحلا ..

قلت لها وهى تنظر إليه وتلقى برأسها وخصلات شعرها نحوى وتقول ..

- بلهاء ..

قضيت وقتى فى محاولة التأقلم مع الإضاءة الخافتة المشبعة بالروائح الرطبة المصاحبة لرائحة حساء اللحم ، أتسمع لصخب العاصمة وأرى زحامها في حركة أمه ، وفى آثار مهرجان الألوان الذى كان مقاما على وجهها فامتزجت ألوانه بأثر البخار ورذاذ الماء الساخن ، تلملم

الأشـيـاء وتلقيـها في سـلة بلاستـيكية حمراء ، زجاجات الكولا بـقايا الطعام داخـل اللفائف الورقـية ، رفعت الملـلفات المحشـوة بأوراق من أقصى زاوية الصالة المثلثة لتلقيها مع ما لمته من فضلات ركضت إليها ، أمسـكت برسغها ، سددت كلمتى إلى عينيها المفتوحتين فى ذعر ..

- اتركيها ..

مات مفتوح العينين ، مقلوبهما ، رأسه ملقى إلى صف من بلاطات الأرضية الناعمة بكامل ملابسه وقد سحل عليها آخر ما فى جوفه .

كنت أرمق حركتـه الرقـيقة الهادئة ، فى ارتشـاف المرق السـاخن ينتابنى إحساس مؤرق يخفق له صدرى بأنه سيتصـاعد إلى التلاشى كالأبخرة الشفافة المتصاعدة من الإناء الخزفى العميق ، فلا يشغل هذا الحيز الضـيق من العالم ، كان يحدق فى قاع الإناء بعينين كدائرتين . أتساءل وأنا أقلب عينىّ خلال الأرضية غير الممهدة ، فى الجدران القذرة المرقـعة ، فـى أذنـاب الفـئران المنتصبـة من شـقوق أغطيـة الصناديق الورقية ، التى كدس فيها كتبه وموسوعاته الضخمة .. كيف يمكننى أن أساعده ؟

تلصصت بأنفى على نتن الرائحة المتحركة من باب شقته عبر بوابة المنزل الحـديدية إلى حـيث لاعـودة ، سـحـبت عـينىّ إلى الشـرفـة أخضعتهما لنظرة طويلة ، اخترقت الملاءة بصفرتها القانية ، إلى الكيان المهترئ الملتف بها يتأرجح بين الأيدى الممسكة بطرفى الملاءة .

فى صباح كل جمعة كنت أتسلل إلى شقته ، وهو فى الخارج ، أحاول أن أعيد النظام إلى أشيائه أن أعد له وجبة ساخنة طازجة ، كالتى حاولت أمى تعليمى طهيها غير أنى كنت أعجز..

أتجول بين الحجرات ، أحصى البلاطات القديمة والجديدة وكأنى أتفقد معبدا فرعونيا بأعمدته التى تستند عليها الجدران الضخمة ، وأقول وأنا أتابع حركة عنكبوت فوق نسيجه الكثيف ، إن حياة توفيق تعادل حياة هذا العنكبوت ..

بعد إزلاج المصراعين الخلفيين لعربة الإسعاف البيضاء ، بقيت أمه تصرخ وتعوى ، تراقصت وهجة البللورة الحمراء الناتئة من سطح العربة ، كانت عيناى مفتوحتين لسعتهما تقتفيانها حتى انسدل عليها سور المستشفى الممتد .

فتاة المقهى والسيل :

في ظهيرة اليوم ، رأيتني وسط زحام شديد متكاثف ، كزحام محطات القطارات بعد توقف آخر عجلة في قطار طويل آت من سفر بعيد ، مدثرة بعزلة شديدة ، متسربلة برداء طويل مشدود عند الخصر ، أحمل بين يدى صينية معدنية ، فوقها قدح قهوة مقلوب ، أفتقد شخصا ما ، والزحام حولى يتبدد كسحابات دخانية متراشقة فى السماء ، ثم أصبحت فجأة وحيدة ، أدور بعينىّ حول سور قرميدى واطئ ، تتحصن بداره غرف صغيرة ضيقة متباعدة ، على إحدى الغرف التمع الاسم . قفز إلى ذؤابة لسانى فانداح صوتى يشق الصمت ببكائية تجاوبت مع الأمطار الشديدة التى بدأت فى الانهمار ، منادية :

- دكتور توفيق ... دكتور توفيق ... توفيق ..

تتابع النداء كالمطر الذى أصبح يشرم السور وكأنه سيل ، أحاول إيقاف السيل بيدى ، مثلما أحاول الاحتفاظ بصورة من أناديه حية نابضة فى وعيى .. الذى خمد ، حتى سقطت أرضا .

استيقظت وقد تلاشت صورتك .. وانداح اسمك فلم تعد الموجات الهوائية تتناقله ثم عاد وجهك ، كما لو استيقظ لتوه وبزغ من العتمة المتطابقة ، مبتسما حزينا ، لا يظهر شيئا ، شجبت صورتك خلف بؤبؤى عينى ، ورحت أنقب عنك فى الطرقات التى تتصالب تحت الضوء

البرتقالي والأبيض المنثور فوقها ، اتكأت إلى سيارة صغيرة خضراء عند مفترق الطرق الأربع ، تعللت بأن رؤيتك من هذا المكان أكيدة ، شعرت بوهج طيفك يكلل مسارات الاتجاهات الأربع وأنك ستبزغ فى لحظة ، خاطفا غيابك ، سائرا حذو الجامع أو بجوار الطوار المقابل ، حيث كشك الجرائد ، وربما تنبثق أمام مبنى السنترال .

- أمامى ساعة واحدة حتى أتسلم نوبتى فى مقهى الفندق .

سرت أتتبع خفيك وكأنهما حفرا على الطريق دليلا إليك ، أدلف إلى شارع وأخرج من آخر وأنا أدعو القدر فى سريرتى أن يضعك أمامى ، فأخبرك بأنى حلمت بك ، وأطلبك للسير معى ، لأتأمل الشوارع والطرقات والظلام والحوانيت بعينيك لا بعينى ، وسوف نتحدث كثيرا أكثر مما تحدث مع صديقيك اللذين تلقاهما بالمقهى ، ويلقيانك مهللين ..

- أهلا ... دكتور توفيق ... أجلس ..

أقبل عليكم وأنا أعرف أنهما سيلحان عليك لترضى أخيراً بشرب فنجان قهوة زيادة ، أضعه بين يديك اللتين تفترشان المنضدة ، تتحسسان الدفء الساكن فى مفرش المنضدة المخملى ، وأبحث عن عينك المسطحتين اللتين تعكسان فقط صورة الرجل الجالس فى مقابلتك ، ستحدثنى عن الملكات الفرعونيات اللاتى يزرنك من حين

لآخر فى منزلك ، ولن أبهت لحديثك هذا ، ستدرك حتما أنى امتداد لهن وأن عمرى احتمل أعمارهن جميعا ، سترى ذلك فى عينى المرسومتين كعينى نفرتيتى ، وفى طرف أنفي المدبب كأنف كليوباترا ، وحتشبسوت الحزينة فى أعلى وجهى ستجد جبهتها تشع حزنا ونورا .

أبحث عن رجل بمواصفات ثابته ، وخطوات خاصة ، وستره طويلة الأكمام . يتحرك بأغوارى حد بعيد من الألم .

اتسلم عملى ..

ربما للمرة الألف قد رأيتك ووطأت بسطة إدراكى وكانت تلك المرة التى انتبهت إليك فيها حين أخطات ودخلت دورة مياه السيدات ، وخرجت تتأمل حدود وجه الأنثى الجانبى المرسوم بأعلى ضفتى الباب ، يملأك الحبور وإحساس عميق بالراحة ، ربما تحسست آثارهن على المكان ، فوق سيداب المراحيض تشكلت لك الياتهن مستديرات ، على سطح المرايا رأيت عيونا ترف أهدابها لك وتدعوك إلى ولوج نسائها ، تقمصتك حتى انثابتنى مشاعرك ، تابعتك وأنت سابح فى أحلامك حتى الغرق فتطوقك ضجة حاكها أحدهم حولك لأنك اصطدمت بكتفه ، وددت لو أوصى كل المخلوقات بك خيرا .

- فى أمسيات الشتاء ، يخلو المقهى ..

وقفت أمــام الشرفة ، خلف زجاجـها الطويل العريض الذى بدا ممتدا ، أحطت بيدى كوب الماء المثلج ورشفت منه ، لسعت برودة الماء لثتى وحلقى ، ثبتّ عينىّ عبر زجاج المقهى أستحضر الخطوات الوالجة الطريق ، خلال زحام البشر المألوفة وجوههم ، مثلما اعتدت رؤيتك وكان يملؤنى إحساس بأنك ستذوب على القار الأسود الباهت ، وتتلاشى كالغبار المتطاير حول أشعة شمس الظهيرة ، سألت ظلى المنعكس على سطح الزجاج الأملس المتجمد بأثر الأنفاس الساخنة .

لماذا لم أركض خلفك ؟ أمسك بك ، اعتصر ذراعك ، أطأ وجهك الأوروبى الملامح بوجهى الذى رغبت لوأراه يتراقص فوق حدقتيك الزرقاوتين ، أن أدفن أصابعى داخل رماد شعرك الخامد فوق رأسك ، كنت أريد زرع ابتسامتى الممتدة فى أعماقك ، أؤكدك لهذا الوجود الحسى ، غير أنك كنت تفلت مثل رؤى ليلية تتساقط من الوعى حين إفاقتى وتعود من نفس المنحنى اللانهائى الذى يبتلعك ، بنفس خطواتك العجولة بغير هدف وبجسدك الضامر مهتزا فى ثبات تحت سترتك السوداء الثقيلة ، وبعينيك اللتين لا أراهما وأشعر بهما تحلقان وتدوران ، وكأنما تبحثان عنى ، ربما كيفما تبحث عيناى .

تختفى ثانية فى الزقاق الضيق بين الفندق والقنصلية اليونانية ، وقد ذبت فى الظلام وكأنك جزء منه .

– دخل المقهى رجلان ..

صديقاك اللذان تتبادل معهما سجائرك المارلبورو والقهوة الزيادة ، أحدق فيك فأنت تعيش بداخلى ، أتسمع ضحكاتهم ، أتنصت على صمتهم المتأمل فى المخطوطات المبسوطة أمامهم .

- فنجانى قهوة «مظبوطة» .

فقط فنجانا قهوة «مظبوطة» ، بدون فنجان القهورة الزيادة ، أود لو أسأل عنك وجوههم المحملقة في الأوراق ، والتى بدت وكأنما تشع خلف لوح جليدى شفاف .

- أضع الأقداح ..

أدقق فى وجه صديقيك ، كان الصمت ينقل إلىّ أحاديثك معهما ، لكم ألفت وجهيهما ، وشعرت بأنهما ينظران إليك فىّ ، أؤكد أنى أحببت طفلة اصطدمت بك ، وربت على رأسها وقلت لها بخفوت : آسف .

تمنيت لو ركزت أعماق حواسي عليها ، لأمتص شعورها بك ، كتلك المرأه التى سرت خلفها مقيدا بخيوط حريرية لا مرئية ، تتفحصها بدءا من سوارها الذهبى الذى يسيج سمانة قدمها البيضاء واستدارة ردفيها المذبذبين تحت العباءة البدوية السوداء ، ودوامة شعرها الواسعة العميقة ، وقلت لك يومها وأنت تسكننى ، هل شعرت المرأة

بعينيك تحفان بهدوء الأرواح المتطمية مراكب الشمس ، هل تألمت حين أدارت وجهها لتفاجأ بعينيك وقالت ياللرجل التعس ، هل تمنت لو تصبح قربانا أو معادلا لحياتك مثلما تمنيت ؟

ينصرف صديقاك ... ولم تأت بعد ..

أكاد أرغمهم على انتظارك ، ولكن أين يمكن أن تكون الآن ؟ أعرف أنك تجر نفسك فى الصباح والظهيرة ، تخمد رغباتك تحت الشمس ، وفى المساء تدللها وتسترضيها ، وترطب حرقتها بدفقات الهواء الباردة ، والآن ربما تعود إلى بيتك ، حيث تبتلعك ظلمة المدخل القاتمة ، وتكتفى بضوء شمعة ، كى لا تزعج حبيباتك بالضوء الكهربى الذى ينهمر فى قسوة فاضحة لهن .

إنها الثامنة والنصف ..

بعد انتهاء نوبتى فى كل مساء أحج لبيتك ، أطوف فوق طواره ، لأكون أكثر قربا ، بدءا من خلفيته المقابلة لواجهة المستشفى ، ثم واجهته بحزاء سور المدرسة الابتدائية الأصفر ، تفصل بينهما بركة من الماء الآسن .

يباغتنى زحام غير عادى ، يبدد العتمة ، يتيه فى ضوضائه صدى طرقات حذائى ، تتوقف خطواتى عند ارتجافة هلع فى ساقىّ ، أشيع بارتعاب سيارة الإسعاف المنطلقة عبر بوابة المستشفى العريضة ، ألتقط

وجهى صديقيك وهما يقفان بعيدا عن المجموعات البشرية الصغيرة المتباعدة ، يتبادلان الإشاحة ، كلاهما عن وجه الآخر ، وأشعر بالتهاوى كريشة ، أتساقط فاقدة التوازن ، فما أنا بالمرتطمة أرضا ، تتفسخ عظامى فوق صلابتها ، ولا ثابتة فى تعلقى ، حتى جذبنى أحد صديقيك قائلا ..

- توفيق .. الدكتور توفيق ... الذى كان يجلس معنا بالمقهى ..

ويلتقط صديقك الآخر النقاط الفاصلة ، ويكمل ..

- لقد مات .. منذ أيام ... ربما أسبوعين .. منذ آخر مرة كان معنا ..

حاولت التذكر .. كما اعتصر صديقاك جبهتيهما بأصابعها .. ولم يتذكر أحد ، حتى أن وجهك الأروبى الملامح تلاشى من وعينا ، وكأننا لم نعرفك أبدا .

نصرة والجمعة الأخيرة :

كان ذلك فى الصباح ، عند شاطئ القنال ، فوق طراوة العشب الأخضر ، بجوار سور ترسانة إصلاح السفن ، تكسرت عصبة من أشعة الشمس على أجسادنا ، نابضة كانت ، مكللة بالدفء ، جلسنا متقابلين ، وجهه إلي الطريق الأسفلتى الذى كان مبللا ، بينما وجهى يتنقل بين سور الترسانة والسحابات الاسفنجية ، كانت ركبتاه مرفوعتين فى مقابلة صدره ، ورسغاه مثبتان فوق ركبتيه ، ويداه مهدلتان فى الفراغ ، تلتمعان تحت الشمس ، قلت وأنا أسرح بعينى فوق تطويقة البحر والسماء ..

- إننى أحب الحياة ، ليس كثيرا عليها أن نحياها ، علينا أن نحياها لا أن نعيشها باغتةً وسددت عينيّ فى عينيه وقلت ..

- كما أننى أحبك أنت أيضا ..

كانت عيناه تطابقان سطح البحر والسماء والأديم ، تتماوج فى زرقتهما ألوان الحياة ، غير أنها ألوان مبهمة ، فلا الأحمر أحمر ولا الأخضر أخضر ، قال وهو يتحسس جانب وجهى بنظرته ..

- حالة من حالات الفرح الإنسانى ، تبصرين بها الأشياء .

أقسى ما كان يفعل بى تبرير المشاعر ، قلت بخفقات صدرى الصامتة التى يتحصن بها حبى لمدينتى وعشقى لقنالها وجبلها ومبانيها ..

- تبريرك للأشياء ، يعنى عدم تصديقها .

- كيف تظنين أني لا أصدق هذا الوجود ؟ هل تعتقدين أنى لا أحب هذه السحب ، وهذا القنال الذى ارتفع ماؤه حتى غمر الطريق ورواه ، وهذا العشب الذي تزعق خضرته بالحياة .

قال وهو يكبس بيده المرتعده ، برودة العوسج ..

- ولكنى لا أستطيع الإمساك بهذه الاحاسيس إنها تتبدد ، مثلما تفعل الشمس ببرودة أطرافك . تمتمت بكلماته وأنا أحدق فى السور النظيف .

- الأمر نسبى .

وكما أن للصمت أصداءه ، فإن أصداء هذا المكان لها دوى خاص بها ، هو علمنى التحديق فى الصدى .. كان يقول :

- الصدى ترجمة حية للصوت الذي يفنى ..

كان قد أحضر طبقى مكرونة بالبشاميل من الكافتريا ، غمرنا أقلام المكرونه بسلاطة الطحينة وتناولناها ببطء ونحن نتأمل الغربان التى كانت تحجل حول مائدتنا الأرضية ، تلف حولنا ، ترنو ، تتباعد وتدنو وهى تدس فينا مآقيها الغريبة التى ما رأيتها أبدا ، حتى وأنا أنظر بحنان وأقول له ..

- مظلوم طائر الغربان ..

- علم البشر أن يواروا جثثهم ولا يمانع في أكلهم جيفا ....

قال وقد بدأ بإلقاء قطع المكرونه إلى الغربان علي مسافات متباعدة ومتقاربة منا ، حاكيته وأنا أشعر بالذعر من مناقيرها السوداء المعقوفة ، والزغب الناعم الذى يغطيها ، كنت ألقى بالطعام المتبقى فى طبقى علي امتداد ذراعى ، محاولة إقصاء الغربان إلى أبعد مدى ، وكان كل غراب يتناول ما نلقية إليه بمنقاره ويطير بحمله إلي سطح مبنى إدارة الترسانة ويقف بعيدا عن غيره ، منفردا بغنيمته بين ساريات الأعلام المنتصبة فى الفضاء ، ثم يعود مرة أخرى داسامنقاره بين الحشائش ، طائرا بحمله ، حتى فرغ الطعام من صحافنا . قلت :

- لما يقال أن الغراب يطير بالفرحة قبل تمامها ؟

لم يجب . مال رأسه ، مدد ظهره فوق العشب ، مدد ساقيه ثم توسد كفيه ، تقاربت الغربان منه حتى أحاطت به ، وهئ لى أن الغربان تعتليه وتعمل مناقيرها فى عتاقة حذائه وفى سرواله وسترته الأسودين ، وشعره الرمادى ، وترتفع به ..

سرنا فى عودتنا علي شاطئ الخليج ، خطواته أسرع ، أبحث فى الشبه بين ظلينا ، وألوى رأسي أرقب قرص الشمس الذي يغطس ويقب خلف تعاريج الجبل ، باسطا ظلا ذهبيا مستطيلا بعرض الخليج ، أسير خلفه أحاول الإمساك بإحدى يديه ، أخشى فقده ..

تلك كانت الجمعة الأخيرة لى معه ، وفى المساء ، حين تشرنقت فى فراشي بدأت أرتاب فى أننى كنت معه حقا ، فى ذلك اليوم أو فى أى يوم آخر ، حتى فى ذلك اليوم الذى دعانى فيه لزيارة بيته واعدا إياى بشرب الشاى مع قطع جاتوه من «الكامب راتيف» .

- إن وحدتى مفزعة مخيفة . تكاد تدمر الحب فى قلبى ..

قال بعد أن فتح الباب ، وقادنى إلى غرفة صغيرة فى مقابلة الصالة الخاوية التى ذكرتنى بحال بيتنا بعد انتهاء الحرب وعودتنا من الهجرة ، أجلسنى إلى مقعد نظيف رغم قدمه خلف باب الحجرة ، وفى مواجهة مكتب خشبى ازدحم بمجموعة من المظاريف والأوراق وبقايا أقلام رصاصية صغيرة متلاصقة متساوية ، وضع كوبى الشاى وطبقى الحلوى فوق المكتب الذى صفت فوقه عدة طوابق من الألواح الخشبية الثقيلة ، اكتظ كل لوح فيها بمجموعات ضخمة ذات أغلفة متقادمة متربة من كتب بلغات عديدة ، بجوار هذه المكتبة نافذة زجاجية قال إنها تطل على مسقط البيت ، والجيران يلقون بكراكيبهم ومخلفاتهم فيه ، فتهب منه روائح سيئة لولا ذلك لفتحته لك .

علي الجدار المجاور للنافذة ، علقت بعرض الحائط ونصف طوله خريطة للعالم ، رسمت دوائر رصاصية حول عدة بلاد منها مصر .. اليونان ... إيطاليا... ألمانيا ... فرنسا ، وعلامة أكس على كل أمريكا ، تحت الخريطة أريكة صغيرة غير مستوية .

كنت أتأمل المكان بنهم وكأنى فى حلم ، وأعود أنظر إليه ، محاولة حفظ شكله الذى كان يتغير مع كل كلمة وقد حدثنى عن سندباد والرجل العاجز الذى بشنق رقبته بقدميه وجعله يسير به ليلا ونهاراً يحرمه لذة الراحة ويسخره لمطالبه ، فإذا غفى أقلقه وإذا توانى ركله . قلت له :

– هكذا فعلت بك وحدتك.. ولكن سندباد فطن إلى حيلة تغلب بها على الكسيح .. فأين حيلتك ؟

نظر إلىّ ينهرنى ، وضع فى يدى كوب الشاى وفى الأخرى طبق الحلوى ، حتى ارتبكت ، شربت الشاى أولا .. تناول منى الكوب فارغا ثم لم أستطع أكل قطع الجاتوه .

لم تكن تلك محاولتى الوحيدة للولوج إلى وحدته واتنزاعه منها ، كانت لى محاولات كثيرة معه ، فكنت أبدو كمن يغزل نسيجا ، تاركا أول الخيط ليد تنسله ، وأسأله عن فرحه الإنسانى ، وعن موضعى منه وأخبره برغبتى فى أن أحيا بلا تصورات غيبية فيقول ..

– الدنيا قدر للطهى واسع وكبير وفارغ ، تحته نار ، يرمى فيه كل من يحياها بحفنه من ملح آملا فى الحصول على وجبة شهية .

وقررت أن أتركه يجرع أيامه وحده ، لوحدته التى ارادها ، غير أنه لم يتركنى لحظة واحدة ، ظل وجهه الحزين معلقا بذاكرتى ، مجاورا لى فى جولات الجمعة الصباحية ، وأنا أردد لطيفة : أضعت فرحتى وبهجة روحى ، ولم يتبق لى غير الخوف ، امر امام بيته تغمرنى شمس الظهيرة بدفء يرجفنى ، أنظر إلى امرأة تطل من نافذة بالطابق الأرضى أتساءل إن كانت تعرفه حقا ، أولم تحاول اختراق عزلته ، أردت أن أخبره بأنى لا أحتمل صباحات أيام الجمعة بدونه ، وكلما حاولت لوى عنق رغبتى فى رؤيته ، أجدها تنتصب وتتمدد وتفترش أعماقى ، فأرفع وردته القرمزية التى خنقتها بين ضفتى مؤلفه الذى أهدانيه ، أقربها لأنفى ، أتشمم شذاها المعتق الذى كرائحة الذكريات الميتة .

لما قابلتنا جنازة ونحن نسير بامتداد شارع الخضر حيث مسجد سيدى الغريب ، تناولنا الحديث فى الموت وعن الموت حتى بكيت فقال ..

- اننى الآن حى فأنا لا أعرف الموت ... وبعد أن أموت لن أشعر أننى ميت ، إلاشكال ينحصر فى اللحظة التى أنتقل فيها من الحياة إلى الموت .

وعدته وأنا أجفف دموعى التى أصبحت تنهمر لمرته القادم ..

ومنذ ذلك اليوم وهو يموت فى أحلامى كل يوم ، وها هو قد اهترأ موتا ، وحمل فى سيارة الإسعاف ، ولم أكن بجواره فى تلك اللحظة ، ولا استطيع بكاء موته الأن ، فقط أتأمل الوجوه المجتمعة التى تقف بباب بيته وأنا أتساءل أين كان هؤلاء من وحدته وكيف كان وحيدا وكلهم يحزنون من أجل موته ويعوون كلما أخرج الرجال ذوو المعاطف البيضاء والكمامات ، قطعة من عفش بيته ... صندوق ورقى من صناديقه التى حفظ فيها كتبه التى فنى فيها عمره ، الوسادة والحشية والغطاء الذى كان يعانقهم عند نومه ، مجموعة كتبه والمكتبة والمكتب وخريطة العالم بدوائرها وعلامة إكس ، والأريكة والمنضدة الخشبية ، أطرا الصور التي لم أرها من قبل .. كل ذلك وكثير غيره يخرجه ويكومه فى الميدان الذي يتوسط بيته والمدسّة والمستشفى ، ويضرم فيه النار .. من لم يكن يعرفهم توفيق .. الدكتور توفيق صاحب رسالة الدكتوراه فى الأدب والمدير العام الذى استقال لاجل مبدأ ، صاحب الشعر الرمادى والوجه الأوروبى الذى لن يتذكره أحد بعد اليوم الرجل الذى عشق ملكات الفراعنة وتبعثر منيه فوق صورهن المحفوظة بين صفحات كتاب الموتى ، الذى كانت آلهة اليونان تنظر إليه من فوق أعمدة بيته المغلقة بالملاط المرقط فى ظلام السقف وتتنزل عليه وفى عينيها الأحزان روؤسها مثقلة بالأسى ، مرتدية أوشحتها الشفافة .

* * *

خرجت إيسا في الصباح وقد وضعت شال أمها فوق ثياب النوم ، وقفت في الميدان ترمق الهياكل المشتعلة .. وتتذكر حالتها الأولى ، تعبث بالأحشاء الملفوظة للكومة المشتعلة ما أن تمس شيئا حتى يتحلل بين يديها ويتهاوى رماداً متناثرا ، وكانت الأوراق تتطاير حولها بأطرافها الهشة وتذوب في الجو ، قضت إيسا وقتا طويلا فيما بعد تلتقط الأوراق النصف محترقة من الطريق ومن صناديق القمامة الحديدية ، وتنتزع التصاقاتها بأطر السيارات التي ارتكنت إلى جدران الأبنية ، تحشو بالأوراق جيوبها .

وكانت في خطواتها تحصي ثلاث خطوات إلى الأمام ، وترتد خطوتين إلى الخلف . بينما عيناها مقعرتان تبحثان عن ورقة كتبها توفيق وكان يضعها فوق مكتبه خط عليها بحروف كبيرة ثقيلة : [illegible] المجميع .

السويس في ١٣ / ٢ / ١٩٩٣

جبال الحزن

مثلما كنت فى عشية اليوم ، أجلس إلى جواره وفوق شعرى هذا الطوق بألوانه الفسفورية الزاهية والتى التمعت فى ظلمة الطريق وتحت أضوائه الكاشفة ، كان الطوق يجمع خصلات شعرى الأمامية إلى الخلف ، غير أن أطراف شعرى الثقيلة الحالكة تناثرت على جانبى الطوق تغطى أذنى وتحف وجنتى .

رأيتنى أقف أمام الجبل الذي يستحم فى لون جيرى وقد اتكأ على حضنه ذلك العامل بزرقة بدلته الغارقة فى الجير ، هكذا رأيت الجير الأبيض يلف كل الموجودات كأنما هى عيناى استحالتا إلى أداة تغلف كل ما تقع عليه بغلاف جيرى قاتم يكاد يزخم أنفى ، سألت العامل وأنا أشير إلى الجبل :

- منذ متى وأنتم تحفرون فى الجبل ؟

فأجابنى بينما الجبل يتململ من اتكاءته عليه فتنهمر الاترية الجيرية من تجويف فى قمة الجبل الراقد :

- كل يوم يساوى سنة من الحفر فى قلب الجبل ، والسنوات تتسلل وتتلاشى مثلما الدقائق واللحظات ، ولأن ما مضى قد ضاع ، والآتى لا أملكه ، فلابد أن عمرى كله مرتبط بهذا الفأس وهذا المقطف الجلدى .

استغرقت السيارة في تلك الأمسية وقتا أطول ، حيث كانت تتسحلف علي الطريق خلف سرب من السيارات المبطئة . اتجهت بجسدى ووجهى إلى عينيه المعلقتين فوق السرب الطويل الذي بدا بلانهاية ، مددت بصرى يساره خارج السيارة ، حيث الجمال المشوقة سيقانها وأعناقها المشدودة ، كانت تتتابع علي الطريق بغير انتظام ، حتى أن رائحتها امتزجت بدفقات الهواء الخريفية المتقلبة وأصبحت أقوى من رائحة دخان شعلة البترول الباسقة والتى سددها الهواء في قلب المدينة . في هذه اللحظة أدار مقود السيارة وانحرف عن الطريق ثم توقف على جانبه مشيعا بعينيه صف السيارات التي تسير بموازاة صف الجمال ، وهو يقول كأنما يحادث الجمال :

- لابد أنها ذاهبة إلى السلخانة .

قلت له وأنا أتفحص فقرات عنق جمل كبير يسير إلى جوار جمل آخر أصغر يلعق وجهه ، يجرهما رجل التمع وجهه الأسود تحت ضوء العمود الفسفورى ، كان الرجل يرتدى جلبابا لابد كان ابيض قبل أن يبدأ رحلته ، التى بدا وكأنه اجتاز كل أفريقيا حافيا بهذا الجلباب الذى أصبح بغير لون ، وشعره تصمغ طوال أعوام حتى أمسى مثل فروة خروف سوداء .

- أمامها ساعة علي الأقل حتى تصل إلى الأدبية حيث السلخانة .

أطرق واجما وهو يتأمل المقود الساكن بين يديه وصدره يتهدج .

رأيت عتاقة يرتجف ارتجافات محمومة ، رجت العامل والفأس المغموسة في جسد عتاقة والمقطف المحملة ببعض منه . قلت للعامل وأنا أرتعش بأثر الحمى السارية في جسد عتاقة المسجى :

- في أي جزء من جسده تحفرون ؟

أجابني وهو يلقي بأطراف أصابعه إلى الخلف مشيرا :

- إننا نحفر الآن في كتفه ..

انبجس بداخلي شعور بالرعب وأنا أنظر إلى التجويف الممتد من الكتف إلى القلب .

تسلقت فقرات ظهره بأطرافي ، بسطت كفي على كتفه ، شددت عليه ، رفع عينين بغير أهداب ملأهما الحزن ، ربما من الألم .. ربما .. قلت له وأنا أكاد أتوسل :

- لماذا تصرعلي الذهاب إليها ؟ ألا يكفيك كل هذا الألم ؟

رفع رأسه أراحه فوق المسند العلوي لمقعد السيارة ، بدا لي جانب وجهه غائماً .

هكذا تراءى لى عتاقة فجأة عبر الزجاج الذى امتد من أول الحائط حتى آخره ، جثة هائلة مجوفة ترقد فى الظلام مكفنة بدثار من رماد ، عتاقة الذي تمنيت دوما أن أمتطيه ، أن أتحسس جسده الفرعونى بأهدابى ، أحك أنفى بأنفه ، أراه الآن من هذا البعد معبأ فى الصناديق القلابة لسيارات النقل الكبيرة ذات المقدمة المتجهمة ، كنت أبكى وأنا أشير إليه ، خلف النافذة ، رأيت الرجل ببذلته الزرقاء يجلس على أحد المقاعد المصفوفة حول المنضدة المستطيلة ذات السطح الأبيض الأملس ، قلت بصوت مخنوق :

- سنفقد عتاقة إلى الأبد ذرة .. ذرة ..

أردت أن أتشبث به ، خفت أن أجده يتلاشى فى الغيم المطبق على جانبى وجهه ، أردت أن أقول له إنى أستطيع قبول ألف امرأة فى حياته إلا تلك ، أردت أن أريه إياها بعينىّ .

أيها الخافق المعذب ، أستيقظ بها فوق لسان عقلى ، ويدى على صدرى الملتاع والقشعريرة تهز بدنى ، فأمد يدى إلى المذياع أغلقه على الطنطنة ، هذا الصوت الغافى فى إذاعة القرآن الكريم ، يتحدث بخنوع يثير غيظى ، فتهرع إلىّ أمى تصرخ فى وجهى - كافرة عيشتك حرام ، ما بتحبيش القرآن ..

أنظر إليها من خلف سحابات النعاس الملبدة لعقلي وعيني ، فلا ألمح غير حاجبيها المزججين ولسانها القرمزي اللعوب الذي يبدأ حركته مع الإذاعة وينهيها معها ، أتهاوى على المقعد ورأسي بين يديّ وقلبي يهتز بين ضلوعي ، يدق بعنف ، يوقظ حواسي التي تتوق للخارج ، إلى مكان بدائي غير ممهد أرمق منه عتاقة الغارق في ضباب الصباح المتكاثف وأتساءل متى أدركت أن هذه المرأة تمقتني ، فأقول : منذ لم تعد تضمني أو تقبلني ، فأحصي قبلاتها وضماتها ، فلا أحصي شيئا .

أوشكت على الاختناق بسبب رائحة الجمال التي افترشت الجو

أحدق في جمل يرفع ذيله المنتصب ويلقي بمخلفاته على الأسفلت الأسود اللامع تحت الأضواء .

رأيتني أتكئ بصدري على الإفريز الخشبي المشقق ، فأرى كل من يسير في الطريق حاملا فأسا ومقطفا لابسا بدلة زرقاء من قطعة واحدة ، تماماً مثل ذلك العامل الذي يجلس خلفي على المقعد الجلدي الذي سقط مسنده ، هكذا رأيته ، حاولت أن أصرخ فيهم ، أن انقذوا عتاقة ، غير أن صوتي لم يخرج من حلقي ، كررت النداء مرة ومرات دون جدوى ، فرفعت وجهي إلى عتاقة الراقد ملتحفا بالهالة الضبابية صرخت فيه بصوت خرج من شق صدري :

- انهض .

اصطدمت الكلمة بكيانه الساكن ، ارتدت تلطم وجهي ثم تنزلق إلى الشق في صدري ، تخترقه ، تململ عتاقة ، أدار وجهه الشاخص إلى السماء ، نظر إليَّ حزينا دامعا ، ثم تابع رقاده .

قال وهو يتابع حركة الجمال المتهادية .

- ما يربطني بها أقوى مما تظنين ، إنها تحتاج إليَّ ، الأمر إنساني .

أركض إلى أبي ، أزيح الجريدة عن وجهه ، أشكو إليه هذه المرأة الجافة ، فأشعر بثقل جبل يلقى على كتفيَّ ، أتهاوى ، يتفادى وجهي صلابة الأرض ، يداها ترتفعان وتهويان فوق جسدي الذي فقد قدرته على الحركة أو الإحساس ، حاجباها ولسانها ، بشرة بيضاء صافية تتقد حمرة وشعر لامع بمفرق شمعي ، عينان زرقاواتان تصبان بغضا في كل أوعيتي ، نبرة صوت حازمة ، عنجهية تركية :

- سوف أحطم كبرياءك ، أدعس أنفك بالتراب .

وفي المساء يأتي أبي ، يطبق كفه على قرط ذهبي ، هكذا أعتاد أن يخترق حاجز الصمت الذي أتقوقع خلفه ، قطعة ذهبية ، ثوب جديد من البحر ، وعد بفسحة في القاهرة ، ويغادرني مسقطا بين يدي حقيقة طالما ارتبطت بها :

- إنها أمك على أى حال .

وعبر باب غرفتي المفتوح ، والدهليز الطويل الضيق ، وباب غرفتها أستمع إليه يذكرها .

- إنها ابنتك ..

فتجيبه بالرنة المتعالية نفسها التى تؤكد وتنفى ما تقول :

- أنت تدللها .

- ولكن البنت فى سن ..

أدرك أنها انتصرت ، حين يغلق الباب ، ولا يصبح للأصوات تفسير فى مدركاتى .

أرى عتاقة ، الفرعون رمسيس ، ملك الأكاذيب ، والمعارك الملفقة راقدا ، أجزاؤه الصغرى معبأة في مقاطف جلدية ، التاج والصولجان وإزاره الذهبى . وقد رأيت عم الحاج خلاف يرجم عتاقة ويقول إنه وثن يجب تحطيمه ، وتعليق الفؤوس فوق كتفها مشيرا إلىّ ، بينما أتوارى عن عينيه اللتين ترياني فى ملابس شفافة .

من الوهلة الأولى أرى عم الحاج خلاف فى كل رجل ألقاه ، فأدرك أنه يكذب حين يؤكد أنه يتعامل مع عقلى الذى يعمل كخلية نحل وأنه يفكر فى كأنثى تفكر ، أعرف أنه سيجردنى من فكرى كما يود لو يجردنى من ملابسى قطعة قطعة ، حتى أنتهى إلى ما يرغب .

أجدني أقول له :

- للصمت صوت مخيف يكاد قلبي ينخلع له .

فيجيبني مشيرا إلى بعر الجمال على الطريق :

- أتدعين هذا الصخب صمتا ؟

النساء أيضا يفعلن هذا معي ، كل امرأه ألتقي بها تتحول خلال مرحلة محدودة إلى أمي ، التي تلاحقني قسوتها في كل عمري ، كل فشل تقف وراءه أمي ، كل طريق يسده جسد أمي البض الممتلئ جمالا تقف عند باب البيت ، واحتي الندية ، أتوق لفرد جسدي فوق البلاط البارد ، تلقي بالنقود حتي أنحني ، أتناولها ، ملفوفة بورقة بيضاء مكتوب عليها بخط ينطق بركاكته ، وأسوأ من خطي عشر مرات :

خمس صابونات صلايت - علبة أومو - زهرة زرقة .

- روحي لعمك الحاج خلاف ..

- مش عاوزة أروح ، خللي هاني ..

- أخوك نايم ..

- مش عاوزة أروح ، عم خلاف مش كويس ..

- أخص عليكي الراجل حج ودقنه لحد صدره ، وتقولي عليه كده ....

- لكن يا ..

فتغلق الباب بعنف ، وأبقى تحت الشمس الحارقة ، أحاول أن أناديها ، المحور الحلزونى فى أعماقى يرفع النداء ويسقطه ، فلا تخرج الكلمة من حلقى .

أقول فجاة :

– إنها قوادة ، رائحتها تشبه زرق الغربان ، عالقة بيدى ، لزجه تكاد تسيل من يدى إلى كل ما ألمسه حتى تتحول الأشياء إلى عهرها ، تتمدد الملموسات وتتكور تحت كريات ملتهبة مدبوغة بلون الذى لا لون له .

أتحاشى عينيه ، أسدد عينىّ إلى أقدام جمل كبيره ، ترتفع وتسقط على الأرض وكأنما هى قطع أسفنجية تفترش الأرض وتتطاير فوقها فى حركة رتيبة متتابعة .

هكذا أسير على الطريق الرملى ، أتأمل من بعيد عم الحاج خلاف ، لحيتة المشعثة والندف البيضاء فيها ، يجلس خلف البنك الخشبى بلزوجته السوداء ، والمسبحة ملفوفة حول المعصم ، يتكئ برأسه على كفه ، خلف موجات القيظ هذه ينصع جلبابه الأبيض المزهر ، أتقدم نحوه ويداى تعتصران الورقة المبرومة على النقود ، هلامية خطواتى على

الفراغ الواسع بين البيوت الواطئة المغلقة من دونى ، فلا أجد أحدا غير طنين الذباب الحاد ، وعينى عم الحاج خلاف الشبقة فى ورع تتلقانى :

- أهلا أهلا ست البنات ...

أتقدم بغير وعى كأننى قطعة حديد صدئة ملقاة فوق الطوار يلتقطها قضيب مغناطيسى .

- الهواء أصبح زخما ثقيلا ، أكاد أختنق .

أقول وأنا أدير المقبض الجانبى فيرتفع الزجاج ببطء ، أنظر عبره فأصطدم بوجهى وقد تضخم ، أشيح عنى بينما يقول :

- تشعرين بالبرد ؟

- لن يرضينى أن تبتعد عنها ، لأنى أريد ...، ولأنها لاتخلص لك ..

وهاأنا أتعثر ، لماذا لا ألقى بكل الحقيقة فى وجهه وأبتعد ، أتركه ينفجر وحده ..

رأيت القمر مثل هلال مرمرى يتأرجح باتجاه عتاقة الذى بدا مختنقا بلفائف السحب ، التى تلقى عبرات ساخنة مثل ندى الموت وأقول لعتاقة الذى تتصاعد منه تفجرات مدوية .

- لن أستطيع أن أجبرك ، لن أقدر على سد هذا النخر الذى يسبح فى جسدك .

شيعت بعينى ظل آخر جمل فى القافلة الطويلة ، نظرت إلى عينيه الفرحتين ، بدا لى عاشقا ضعيفا ، لم يبد أى قوة إزاء مرضه ، عشقه تساءلت لماذا ينزلق هكذا مثل جره بها ألف ثقب فلا صدى يرجع منها .

ملت برأسى على زجاج النافذة ، لسعتنى برودته .

كانت يداعم الحاج خلاف باردة فى برودة يد طبيب الوحدة المدرسية الأبرص .. يتناولنى عم الحاج خلاف بينما أمد يدى باللفافة التى اهترأت بأثر العرق والضغط عليها بشدة وأقول :

- أمى ...

فقط أن أقول أمى كافية ، ألقى كل العبء وكل الغم الذى يتحرش فى صدرى على أمى ، أمى ...

- تعالى يابنتى .. ادخلى من الحر ...

وما أن أطأ الباب حتى أستسلم لدفقات الهواء الطرية التى تنزلق من يشب المروحة الكبيرة المعلقة بالسقف المظلم ، وألتصق بلزوجة البنك الخشبى ، وعم الحاج خلاف يمسح حبات العرق ببرودة يديه اللتين تنزلقان

وتصعدان خلف ثوبى ، كذلك كانت حبات المسبحة المعدنية اللامعة التى تنفرط فوق جسدى وأنا أتساءل لماذا لا يخلع المسبحة عن معصمه وعيناى تصعدان وتدوران حول الأرفف الخشبية التى صفت عليها علب الأومو وقطع الصابون البنية المستطيلة .

لا أدرى من أين تأتينى هذه السراسيب الباردة التى تنفذ خلال مسامى ، فأحاول لم أطرافى والتقوقع داخل نفسى ، تتحسس يداى دفء المقعد الجلدى تحت فخذىّ ، أدس يدىّ بينهما ، أنظر إلى وجهه الذى يقتفى أثر قافلتى الجمال والسيارات ، أدرك أنه يتوق إلى اللحظة التى يلقينى فيها على الطريق الرئيسى ويجتاز الطريق الملئ بالحفر والبكرات الخشبية الضخمة التى تلتف عليها كابلات توصيل الكهرباء ، ثم ينحرف إلى الشارع الضيق الممهد ويغوص فى قلب المبانى الجديدة التى تقف أمام عتاقة تخفى وجهه وباقى جسده حتى فخديه وساقيه المضمومتين .

رأيت عتاقة وقد ساحت ملامحه وأصبح كتلة حجرية صماء

ضاعت انحناءات جسده ، امتزج بالغيوم الرمادية الداكنة ، ورأيتنى أدور حول نفسى أبحث عن مكان أغلقه علىّ وأبكى ... لم أدرى . هل حزنت لموت أمى ؟ بل حزنت لحياتى ، رغبت دوما الموت على حياتها حتى تتألم عنى ، تندب قسوتها ، تحاول أن تحصى قبلاتها وضماتها

فلا تحصى شيئا ، بل إنى أتحاشى ذكراها ، أشيح بعقلى عن طيف قسوتها الملتصق دوما بطيف عم الحاج خلاف وأنفاسه التى تشبه رائحة الأحياء الميتة الملقاة على شاطئ الخليج ، بيديه الدوديتين الباردتين تزحفان تعتصران جسدى ، تمتصانه ، ثم تتركه ملطخا بالبقع الحمراء غارقا فى لزوجة بيضاء تقزز طفولتى وصباى ، حتى إنى للآن كلما هم طيفها بى أتحسس جسدى ، أمسح عنه هذا السائل اللزج الذى لا مخرج لى منه .

- انظرى هل ترين أثراً لها عند المزلقان ؟ .

يسألنى فأجيبه وأنا أتأمل أظافرى القرمزية اللامعة .

- لا لم يعد لها أثر..

وأتوقع داخل هذه الفكرة المخيفة ، بأنه يذهب إليها ويجلس إلى جوارها وعيناه على طرف السرير الورائى وقوابضه ، عبر باب غرفة النوم اللامغلقة واللامفتوحة وعقربيتها تحرقص فى رأسه ..

أدرك وهو يقطع الطريق فى أتجاه عتاقة الراقد فى سكون خريفى مخيف بأننى سأنهض ليلا حزينة مذعورة ، أتسمم ، أتسمم مرة بعد مرة بفحيح طيفها .

ثم رأيتنى أحمل فأسا ومقطفا وألبس بدلة زرقاء من قطعة واحدة وأسير فى اتجاه عتاقة .

١٩٩٢ / ١١ / ٢٨

حـــدث ســرا

وقد كان كل شئ يتوهج بالحمرة القوية المنبعثة من شعلة الشمعة الوحيدة الضخمة ، زجاجة الفودكا النصف خاوية بشكلها الانسيابى التى بدت فيما بعد العنق العمودى الطويل ، ككرة مضغوطة ، بداخلها يتراقص المشروب الشفاف المتأجج ، كأنه جمرة متقدة ، تعرضت للهواء الذى يزيدها توقدا ، كذلك كان الكوب النصف مملؤ ، والذى كان أكثر اقترابا من الشمعة التى برزت على جانبيها قطرات شمعية ، ما أن تتجمد حتى تعود وتتوهج أثر قطرة جديدة تنتفخ كفقاعة سائلة ، وكم كان جميلا مروعا جانب الوجه الكهل الفرح ، يدنو من الشمعة والزجاجة والكوب ، الذى تفضضت على سطحه الخارجى قطرات ماء صدفية فانعكس بريقها فى عينيه الفرحتين المشتعلتين ، وكأنهما قدتا من جبل بركانى ، كذلك بدا كل الوجه ، صلعته التى انسحبت إلى ما فوق أذنيه ، شعر رأسه الأبيض المشعث الذى يغطى أذنه وجانبى رقبته لحيته ، وجنته البارزة ، وجه كهل طفولى فرح ، ارتسمت عليه المتناقضات ، موحية بوجودها الأزلى ، وكأنما يرتد بروحه من نهاية أعوامه الثمانين إلى بداية أعوام تفتحه ، هذا الوجه الذى برز من الظلمة ، يسبح ويستحم ليتطهر بوهج الشمعة ، ويضاجع فى شبق

زجاجة فودكا نصف فارغة وكوب زجاجي نصف ممتلىء . يقف في خلفيته رجلان ممسكان بعصى البلياردو ، ينظران إليه ، وكأنما يشيعانه إلى مثواه ، ولكن كيف يفنى !!

- يكفينى أن أرى هذه اللوحة وأتحسس ألوانها الزيتية ، بأطرافى وأتشممها حتى يسرى فىّ الدفء .

قالت وهى تحرك حواسها فوق اللوحة الزيتية المعلقة داخل الإطار الأبيض ، بغير زجاج ، كانت المصابيح الصغيرة تملأ الأركان ، وكان هو خلفها مباشرة يضغط مفتاح الضوء يطفئه ، حتى وصلت إلى الدهليز المؤدى إلى حجرتين مغلقتين ، فكانت آخر لوحة ، ضغطت مفتاح الضوء الأخير ، نظرت إليه ، اصطدمت بوجهه وشاربه الكث الذى يغطى ويخفى شفته العليا ، قالت بينما تتفادى الالتصاق به ، ضاحكة ..

- يبدو أن كل الطرق تؤدى إلى حجرات النوم ..

من اللحظة الأولى التى اجتازت فيها الباب الرئيسى للشقة وكأنها تعبر إلى عالم آخر يمكن أن يحتوى خوفها ، فتسترد أنفاسها وتلقى بآخر مشاعر الاختناق واللهاث فوق درجات السلم ، التى حاولت عدها لتبدد خوفها ووجلها المتطابقين مع طرقات كعبها العالى ، تحاملت على ألم قدميها كى لا تجعلهما تلمسان الدرجات الرخامية ، حتى أن عقلها لم يحتمل خلال تجاوزها للطوابق الخمس التفكير بعيدا

عن وقوفها أمام الباب الخشبى ، ومرورها خلاله ، غير أن كل تلك المشاعر تهاوت ، وتخبطت وارتدت منحورة ، عندما أغلق الباب واحتوتها الشقة بدفئها وألوانها المتجانسة لعينيُها ، الأبيض الرهامى الأزرق والأصفر الرملي ، وقد استندت بكتفيها إلى الباب وأدارت رأسها كمن استيقظ لتوه من غيبوبة الكوليرا ، وتلقاها وجهها بملامحه الأفريقية منعكسا فوق زجاج المرآة محتقنا بأثر حبس أنفاسها خلال صعودها الطوابق الخمس ، كما انعكست خلف وجهها عدة رفوف خشبية رصت فوقها دواوين للشعر

- نزار .... نزار ... نزار ... الشناوى ... دانتى ..

قالت بينما يتأملها وهى تقلب الكتب بطرف سبابتها .

أشار إليها بالدخول إلى غرفة المعيشة غير أنها أزاحت الستارة المكونة من خطوط معدنية ذات أشكال دائرية ومربعة ملونة ، فوجدت نفسها فى المطبخ ، تخطت باب آخر أدى بها فى مقابلة حجرتى النوم المغلقتين ، قال محوطا كتفيها بذراعيه ..

- حجرة رانيا .. وهذه حجره نومى ..

صعدت درجتى سلم مغطاة بالموكيت الأزرق ، وعبرت طاقة واطئة ضيقة مفتوحة على غرفة المعيشة التى تتكون من أريكتين وثلاث فوتيهات كبيرة بمساند ضخمة ، وقفت فى منتصف الحجرة ، دارت حول نفسها ، تعيد تأمل اللوحات الزيتية .. قالت :

- هل تأمن على نفسك وأنت تحيا بينها ، ألا تخشى أن تخرج من أطرها يوما ، إنها تكاد تنطق وتؤكد ستخرج يوما .. كان يقف منها موقف المتأمل وكأنه بصحبة طفل في معرض للعب ، راقت له وهى تجتلس الأريكةالمقابلة لغرفة الطعام ، وهى تضع الحشية الزرقاء الناعمة فوق ركبتيها المستديرتين ثم وهي تستند إلى نعومة الحشية بمرفقيها . أثارته وهى تشبك أصابع يديها تحت ذقنها فراح يسقط عينيه فوق جسدها ، يرصد انحناءاته ونبضاته وهو يبحث عن مدخلها ، قالت ..

- أول مرة أدخل بيتا يخلو من امرأة ..

- هذا أفضل ما فى البيت .

قال وهو يدير رأسه ، كأنما يقتفى ذبابة ، فهو لم يفتقد وجود امرأة غير ابنته التى تعيش فى حضانة جدتها ، قالت :

- كيف تعيش بدون امرأة تثرثر وتملأ الغرف بحركتها ؟

- أستطيع أن أملأ البيت بهن خلال دقائق .

- رائحة البيت تختلف بوجود امرأة .

- فى كل ركن فى البيت أشم رائحتهن ، لقد نمت مع امرأة فوق باب الشقة ، وبجوار الموقد مع أخرى ، حتى غلى الشاى وسقطت قطراته الساخنة فوقنا ، العالم لا يفرغ منهن أبدا .. ثم أضاف : وأخرى أصرت أن تنام فوق طاولة الطعام .. قليلات كن يصبرن حتى الدخول إلى حجرة النوم ، رغم أن كل الطرق تؤدى إليها .

- ، ، ،

- لقد عرفت ما يقرب من ثلاثمائة امرأة ، كلهن زوجات فاضلات وسيدات مجتمع ...

« إنى معكما أسمع وأرى » .

ضحكت كثيرا وهى تردد هذه الجملة المكتوبة فوق لوحة مرمرية موضوعة فوق تصميم على شكل كوخ أسود به عدة فتحات لأجهزة الفيديو والتلفزيون والبيك آب . قامت تقلب الاسطوانات ، أخرجت أحداها من جرابها ، قالت وهى تضعها على الجهاز ..

- هل تمانع ؟

- أبدا .. كما ترغبين ، إننى حتى لم أسمع أى اسطوانة منها منذ أحضرتها من روسيا فى السبعينات ..

ضربت بقدمها على الأرضية المغطاة بالموكيت الأزرق ، ضربات القدر ، قبل أن تدور الأسطوانة تحت الإبرة الدقيقة وراحت تتأمل اللوحات الروسية حتى وقفت عند لوحة العجوز والفودكا .. هكذا أسمتها ..

- لماذا سافرت إلى روسيا ؟

- كنت في دورة تدريبية لمدة عام .

- لماذا تتدربون ؟

- لأجل الحرب .

نظرت إليه ..

- إذن حاربت في ٧٣ ؟

- واليمن و٦٧ .

- في أي سلاح ؟

- المشاة .. كنت قناصا .

- إذن أنت قناص متقاعد .. تعيش بعين وقلب قناص .

- نعم .. لقد ظننت أنني سأستيقظ في منتصف النهار وأتحرر من هذا القالب الذي صبتني فيه العسكرية فوجدتني أتشبث بالقالب وأتقوقع أكثر بداخله .

- هل قتلت أحدا ؟

- آووه .. رؤوس كثيرة فتتها .

- أتذكر أول رأس ؟

- هل سنمضى الوقت في الحديث ؟

قال وهو يتقدم منها محاولا ضمها من الخلف بعد أن أشعلت المصباح أمام آخر لوحة فى الدهليز المؤدى إلى حجرة النوم .

وكمخلوق أسطورى لملم أطرافه وانزوى يرمق عالما تشعله الأزرار تراجعت الظلمة وحددت الكون ، وقد رشقت فى صفحتها نقاط الضوء الملونة للسفن الرابضة فى عرض الخليج ، حدقت حتى تراقصت الأضواء لعينيها ، جذبت بعمق رائحة البنايات المغسولة والتراب المندى بقطرات المطر ورائحة الأمواج التى تصطك بجدار القناة .

كان الهواء مشبعا بكل هذه الروائح ، ازدردت حواسها هذا المزيج القوى نسمة أثر نسمة .

- يمكنك من هنا رؤية لسان القناة والخليج والضفة الشرقية ، ومن شرفة المطبخ ترى عتاقة كاملا ، أول سقوط للشمس عليه ، ألوانه التى تتغير من الذهبى إلى الفضى ، ثم إطباقته فى الليل ، إنك تعيش فى القلب تماما .

قالت وهى نشوى تتراقص أطراف كلماتها فى الفراغ المقابل لوجهها ، ودت لو تلقى بزهد أعوامها التسع والثلاثين بجوار حذائها وتركض ، تلحق بما تبقى لها من عمر أنوثتها ..

اصطدمت دفقة هواء باردة بكيانها ، أغلقت النافذة الزجاجية رأت وكأن ظل ضوء شمعة يتراقص فى ظلمة سطح الزجاج ، أسدلت شيش الحصير المعدنى الأزرق .

تصاعد الدخان من كوبى الشاى الخزفيين فى دوائر دوامية لا نهائية ، وضع الصينية المعدنية فوق المنضدة المستطيلة الغارق سطحها الزجاجى تحت زحام الطفايات الكريستالية والزهريات الخزفية وألبومات الصور الملونة ، قالت وهى تتصفح الصور وقد كانت كلها فردية لابنته بلباس البحر ، بزى المدرسة ، وصور أخرى ببذلة مرقطة بلون الرمل الطينى كالتى يرتديها رجال الصاعقة ، وهى ترقص بعصا القيادة .

- يبدو أنك تنسكب فى ابنتك .

- إنها كل ما تبقى منى .

- بالأضافة إلى النياشين والاسطوانات واللوح الزيتية ، ورائحة النساء .

أشاح بوجهه كأنما يتحاشى رائحة قوية عندما بسطت لعينيه صورة تقف فيها إلى جوار ابنته امرأة شقراء ذات جمال قوى لا يشبع

- هذه زوجتك .. إنها جميلة .. لماذا طلقتها إذن ؟

قال وهو يلملم الألبومات من فوق فخذيها ويطويها .

- لن أخوض فى هذا الحديث أبدا .

- ولكنها لا تشبه ابنتها .

قالت وهى تلقى بنظرة على آخر صورة قبل أن يطويها .

لكنه عاد يتأمل الصورة فى صمت ، يبحث عن أوجه الشبه الضائعة بين البنت وأمها ثم صفق مصراعى الألبوم صفقة قوية مدوية .

- أين هى الآن ؟

- تعيش مع جدتها لأمها .

- أعنى زوجتك .. مطلقتك .

- فى (أبو ظبى) .

- وماذا تفعل فى (أبو ظبى) ؟

- تشتغل .

- معلمة ؟

- لا .

- ماذا تفعل إذن ؟

- لا أعرف .. ولم أهتم بأن أعرف .

- ولماذا الانفعال ؟

- لا أريد التحدث عنها .

- هل تخيفك إلى هذا الحد ؟

نظر إليها بعينين حمراوتين متحفزتين ، أغمضهما ودعك على جفنيه بأطرافه .. خلال فتحتي أنفها البارد سرى الدفء في أطرافها هدأ إحساسها بالإثارة ، كان الدخان يتصاعد من مصادره في حركة هادئة ثم يندس في الفراغ ، مد سيجارته المشتعلة إليها ، خرج الدخان الأبيض من فمها كثيفا ، التصقت بحلقها مرارة تذوقتها أول مرة مع سمية ابنة عمها في حجرة الغسيل فوق سطح المنزل عندما اختلست السيجارة وقد اعتقدت أن هذه المرارة عقابا لها ، حتى أن هذه المرارة امتزجت دوما بالإحساس بالذنب .

اقترب منها ، لعق شفتيها بذؤابة لسانه ، تذوق طعم الشاى المحلى ومرارة السيجارة ، رأت زهد أعوامها التسع والثلاثين بجوار حذائها ، لا تعترض ولا تجادل تستسلم دون أحساس بأى ندم ، تعتنق قبلته كأنما هى أول دين يتاح لها .

أعاد كوب الشاى والسيجارة ، تناول كوبها وتركها تنهض تعبث فى أدراج الكهف الخشبى الأسود ، شرائط التسجيل ، الأفلام الجنسية والحفلات الخاصة ، التماثيل الخزفية والعاجية بفجاجة لنساء عاريات وزنوج وأشجار أرز ونخيل .

فتحت الزجاج البللورى للدولاب المقابل لطاولة الطعام ، كانت نياشينه وأوسمته ودروعه منثورة فوق الأرفف ، بين طبقة خفيفة من التراب ، قالت :

- لماذا حاربت ؟

- الواجب ..

- الواجب من أجل الواجب ..

أمسكت بين يديها لوحة معدنية حفرت بحروف ذهبية ..

- اللواء محمد حمزة .. من محمد حمزة هذا ؟

- أخى ....

- العائلة مليئة إذن بالمحاربين .. لا علماء ولا مفكرون .

- فى الحرب لا يعمل العقل .. بل يلغى أمام الواجب .

- لا تقل واجب .. قل إن الحرب تركة تتوارثونها .

- أخى هذا يحكم محافظة بها مليون مواطن .

- وانت لماذا لم تصبح حاكما ؟

- لقد عملت فى الحرب ما يوازى عمل عشرين حاكما .

- تحاربون وتحكمون وتضاجعون وتنسخون من صوركم أبناء يرقصون بتاريخكم ، كل على حد سواء .. الزمن يرتد ..

- إنك لن تدركى حياة المحارب إلا إذا حاربت ، لن تدركى معنى أن أعود من الجبهة . أخلع سطوتى مع البذلة الميرى ، كما ألقى بالقائد بجوار الفراش ، أترك زوجتى تقودنى إليه ، ثم أعرف أن هناك رجلا آخر يقودها ، حاولت ألا تبدى شفقة إزاء نبراته الشاردة .

قالت وكأنما ألقيت التفاحة فوق رأسها ..

- يبدو أن المحارب سادى فى الحرب ، ماسوشى فى الفراش .. وفى الحكم ؟ كيف تظنه يكون فى الحكم ؟

- لابد أنه كل ذلك مجتمعا .

من سيفين فضيين متقابلين فى منتصفهما انبثق وميض ارتطم بعينيها ، كان النيشان الصغير المسجى داخل الصندوق المكسو بالقطيفة الزرقاء من الخارج والمبطن من الداخل بالساتان الأبيض اللامع رغم ذرات التراب المنثورة .

تأرجحت صورة زوجها كالبندول لعينيها ، فرأته نصف عار ، نصف مدثر بكفنه الأبيض وكأنما استمعت إلى الأصوات الصباحية المبكرة التى تذكرها به ، صياح الديكة المتتابع ، رفات أجنحة العصافير فوق الكافورة المحاصرة بالندى ، أفاقت وكأنما صرخة طويلة متحشرجة انشقت عن صدرها وحلقها .

أغلقت الزجاج وتهاوت إلى جواره كبذرة جافة عمرها ثلاثة آلاف سنة تنزلق نحو بركة ماء .

لقد أدركت بموته أنه لم يعد هناك وقت للإحساس بالألم . جمعت أطر صوره وأشياءه ، كدستها فى صندوق قديم وضعته أسفل صيوان مغلق للأبد ، لم تتحدث عنه لابنتيها ، لقد طوت ذكراه كما طوى تماما ، كما اهترأ السياج الذى كان يحيطها به ، لم يعد إلى البيت مرة أخرى بجريدة مطوية وعقل فارغ ، يبحث فى علب التوابل ويعد أكياس اللحم والدجاج ويقسو على طفولة ابنتيه ويفحص ملابسها قبل خروجها للتأكد من أن خصلات شعرها لا تسقط من طرحتها وأن طول ثوبها كاف ، تحررت من كل ذلك ، غير أن إدراكها لهذه الحرية أصبح خلال عشر سنوات من موته ضيقا محدودا ، فلم تعرف استخدامات حريتها وتساءلت فى دهشة .

- هل أنا أمارس حريتى الآن ؟

- هذا حقك الطبيعي فى الحياة .. أن تعيشى بالشكل الذى يروق لك .

كان يظن أن أعوام ترملها هي التى ألقت بها فوق صدره ، لم يدرك أن إحساسها بالزمن الذى يبدو بجملته أسرع منه مجزءا إلى لحظات وأيام هو الذى جعلها تلتصق به ، كانت تشك فى أن هذا هو الشكل الذى يروق لها حقا ، لقد كانت تتوق دوما لانتفاضة حقيقية ، حين تصحو كعادتها لتجد حدود مدينتها وقد ضاقت بها ، ولم تعد تتواءم مع ابنتيها ومرافقها وأهلها ، فتقف خارج بيتها تبيعه وتتقاضى ثمنه بعد أن تشحن ضرورياتها فى سيارة كبيرة متقادمة ، ويبدو كل ما حولها فوضويا ، حتى ملبسها ، شعرها وأشياءها المكومة خلف السيارة وتقافز ابنتيها حولها .. ثم يبتلع الطريق هذه الصورة التى وصفتها له وكأنها تقص عليه حلما عصيبا ، بينما يده تفك أزرارها الكبيرة والأخرى تتحسس وجهها وشفتيها .

كانا كقنفذين يتلاصقان وبقيا هكذا حتى لم يقدر أحدهما إلا على إيذاء الآخر ، لقد تأذى بإحساسه بضعفه ، وتأذت بإحساسها بأنها أودت به إلى هذا الضعف ، وقد التفتت إليه وهى تفتح باب شقته فى اللحظة التى رفع إليها وجهه ، ليقولا معا ..

– ما حدث اليوم يجب أن يظل سرا .

السويس ٢٦ / ١٢ / ١٩٩٢

الذى لم يأت بعد

رفعت يدى عن الشق ، حاولت أن أتلمس برودة الهواء ، وجدت كفى ساخنة فعاودت تقريبها من الحائط المشقوق ، الهواء كان ثابتا ، باردا فى برودة قطعة معدن . أستطيع الآن أن أمد كفى داخل الجدار ، أتحسس غبار اللبنات الخشنة ، أراها الآن بوضوح ، حمراء مصفوفة تفصلها كتل الأسمنت الصلبة المتجمدة ، وكأننى أبحث عن رسالة .. أثر .. تلمستها من السقف إلى حيث اتصالها بحافة الفراش .

كعادته كان مطرقا ، يقلب القطع الخشبية المرمدة أسفل المدفأة ، قلت

- لو بقينا فى البيت حتى الشتاء سأشعلها ، لن أتركها سجينة كونها قطعة من الديكور . ورغم صمته تابعت :

- سأجعل الحياة تدب فى كل شئ ، بعد أن تسد كل تلك الشقوق .

حتى قطع الأخشاب نفرت من نعومة يده ، ليته يصفعنى ، ليته ركلنى عندما رفضت النوم معه ليلة أمس ، ليته نهرنى عندما ثرت وألقيت بكتبه وقطع الأثاث الصغيرة والفازات والأطباق الملونة ، وجعلتها كلها تتهاوى على الأرض .. حطاماً خشناً .

عندما جاءنى مرشح المجلس بابتسامة تكاد تسقط على الأرض ، أعطانى ورقة بها وجهه واسمه وآيات قرآنية ، صرخت فى وجهه ،

قلت له :

- هل سترمم لى البيت ؟ أم أنك ستزيله بالمجان مقابل الأنقاض ؟

سقطت ابتسامته تماما ، شعرت بدويها على الأرض ..

لماذا لا يأتى ؟

إخوانى .. أهلى .. عشيرتى .. إن قرار ترشيح نفسى ..

تأملت الوجه فوق الكلمات ، كان خشنا ولكن ساكنا ، كرهت صفاء عينيه .

.. أعاهدكم بالنضال لرفع المعاناة وللقضاء على الظلم المفروض على السويس رغم ما قدمته من تضحيات وما لحق بها من ..

ينتابنى دوما أحساس بأننى السويس المشققة ، ترتمى ليلا فى أحضان رجل غريب ، عشرات القطع من الوريقات البيضاء المرقطة بالمداد الأسود بكل ثقله ، ألقيتها من النافذة تتابعت لتسقط ببطء .

الحزب .. يا ابناء .. ويس .. ظلـ .. معارك .. مسق .. دمار .

الحكومة تقدم عرضا ، والمقاول يقدم آخر ، ولكن الأمر الوحيد الحتمى ، أننى ، أننا .. ثلاثة أجيال باقية ، متعاقبة ، تتقاطن البيت من اليوم الأول الذى انتهى فيه جدى من بنائه ، ورفض أن يسكنه غريب .

- هذا البيت لأبناء وحفدة العيسوى .

.. سنصبح فى الشارع لفترة طويلة .. هل أقرر أن أنزل بكتبى وسريرى والمراجع القانونية الضخمة إلى الميدان ؟

أعاود التفكير فيه كأنما هو ملاذى ، رغم إدراكى لكونه أنسانا فارغا ، لا يأسرنى إلا بلقاءاته المتباعدة ، أعرف حتى وأنا أرقد تحته ، وهذه الرغبة بأن أذوب بداخله تملأنى وتعتصرنى أعرف أنه جسد خاوٍ ، قشرة ....

فى اللحظات التى تفصل بين الانتفاضة والأخرى ، أفكر كثيرا بأنه لا يستطيع أن يمنحنى الأحساس بالرضا أبدا ، كل ما فى الأمر أننى اعتدت جسده ، مثلما اعتدت السير خلال أروقة البيت وطرقاته الدائرية ، أحب أن أضمه إلى دوما ، وأنا أسأله أن يعتصرنى بين ضلوعه لماذا لا يأتى ويحاول أن يجعلنى أرضى ؟

فى هذه المرة سأتركه يحاول سد الشقوق التى تملأنى ، سأوجهه بيدى إليها وأتحمل حتى يفعل ... لا جدوى .. لابد أن أبحث لنفسى عن حل بديل .

لكننى حقا لا أحبه ، لا أحب صمته .. أو كلماته التى تبدو لأذنى كطنين متقطع ، حتى أطراقة رأسه المعتادة تصيبنى بالغثيان ..

لماذا لا يأتى ؟

أعود ، أدفس يدى داخل الحائط ، أتحسس الخشونة السارية بالرعدة فى أطرافى ، الملمس الخشن يدفع الدماء للركض فى عروقى ، فضلا عن أنه يملأنى إحساسا بالحياة . كم أشعر بالضياع عندما تنزلق يدى من فوق جسده الناعم .. تتجاوز أطرافى خشونة القراميد ، تخترق الفراغ الساكن خلف جدارى ، أحرك أصابعى ، تتصادم فى الخلاء .

هذا الشق يتسع ، يتلوى ويتمدد من أيام كونه شرخا متعرجا يمتد من السقف حيث اتصاله بالفراش ... ثم تمدد حتى استمعت إلى صفير الهواء خلاله يدخل في موجات متتابعة ، الآن كلما قربت رأسي يتدفق الهواء دفقة واحدة قوية دائمة .

قال مندوب المحافظة :

- المبنى خطر على المنطقة ويجب أزالته فوراً ..

اقتربت منه بصدرى ، رفعت شعرى ، كشفت عن بياض عنقى ، ثم أردف ..

- .. إلا إذا أمكن ترميمه بسرعة .

قضيت ليلتى بين الإزالة والترميم ، أصبحت رائحة البيت نفاذة ، لم أتشممها بقوة مثلما فعلت فى هذا الصباح ، تذكرت كلمة أمى ، قالتها بالأمس فقط :

- سنفتقد رائحة البيت .

حقا يا أمى .. عندما كنت أقف فى شرفة بيت الطالبات ، أجذب رائحة البحر السكندرى أدفنها بداخلى حتى تتلاشى سريعا ، تتردد على حواسى رائحة مثل الطيف ، أحاول استعادتها مرارا وأنا أتساءل رغم آلام صدرى وانقباضاته المتتابعة ....

من أين أتت وأين ذهبت هذه الرائحة ؟

الآن أعلم أنها هنا ساكنة بين ذرات الهواء المتجددة التى تملأ البيت ....

لابد أن أقرر شيئا .. أن أرفع يدى عن كل شىء .. أترك البيت .. أنتقل .. أعيش مع سعاد .. وليتهدم البيت فوق رأسه المطرق وجسده الأبيض الزلق ، سأطلب من سعاد أن تغلق عليّ كل الأبواب حتى تلتئم شقوقى فى الظلام .. لن أتركها تثرثر عن على أو محمد أو سعيد .. لن أدع يأسها يسكننى .. أقول لها :

- فقدت البيت والمكتب كما فقدته هو أيضا .

ربما أكون فقدته من البداية كما قال علاء .. آه لو أن علاء هنا ..

ما الذى تظنه الآن يا علاء ؟ حين أخبرك أنك أصبت ، نعم لقد أردته هكذا فى البداية عندما كنت أركض فى كل الجهات .. أردته مطيعا متعاونا ، حتى أننى كنت أسحب جسدى بقوة من تحته لأدون جملة فى عريضة دعوى ، أو أفتح الباب الخارجى للمكتب ، فقدته فى ذلك اليوم ، ربما قبلها فى كل ليلة أعودفيها متأخرة ، أجده متحفزا فأحبطه بادعائى الوهن .

هذا الشق لن يلتئم أبدا ، سينهار البيت لا شك ، كيف أنقل كل هذا الأثاث ؟

هل أنقله وحدى إذا لم يأت ؟ ولكن لماذا لا يأتى ؟

قال علاء : كي تصبحي أنثى يجب أن تخضعي .. كنت في ذلك اليوم أقف إلى جواره في مطبخ عيادته .. يرفع القهوة عن الموقد ، بدوت عائقا في طريقه عندما استدار ليسكب القهوة .. صاح في وجهي :

- ألم تفكري بأن تصنعي قهوتك بنفسك ؟ هل تكتفين بالوقوف ساكنة حتى تأتيك الأشياء بالطريقة التي تحبينها ؟

- لم أفكر .. قلت ، قال :

- نعم إنك لا تفكرين إلا فيما تريدين .. هل حاولت يوما أن تشعريه بضعفك وأنت في قميصك الشفاف ؟

أريد الصراخ ، أجدني أقهقه بصوت عال ، أرغب في البكاء وكأنني أعتصر عودا من الحطب .. أتلوى في داخلي وأنفاس علاء مسددة إلى أعماقي ، قوية أثيرية ، قررت التنازل عن تاريخي بأكمله مقابل أن يضمني وينفث أنفاسه في كل مسامي وشقوقي . لكنه يتناول قدح القهوة من بين يديّ ، إنه يعرف فيما أفكر ، أرجو أن يعرف حقا ما أريد ... يتناولني من كفي كطفلة ، أنهض ، سيضمني إليه حتما ، أتعثر في المنضدة ، يسقط قدح القهوة سليما ، لماذا لا يضمني الآن ، ولماذا يدير كتفي لأجد الباب الخارجي للعيادة أمامي ، وحتى عندما يفتح الباب لا ينظر إليّ ، يدفعني دفعا إلى خارج العيادة وأنفاسه تغلقني .

كلما غفوت واستيقظت أجد هذا الشق يزداد اتساعا ، الشقوق والانهيارات تحدث ليلا ، سراً ... أكان سرا ما بيننا ، أحقا كان ، بدءا من تلك اللحظة التى جلست فيها داخل المقعد الجلدى وطرف إبهامى على جانب المقعد ، يكتب بغير مداد ، د / علاء عز الدين طبيب أمراض نفسية . هل أنا مريضة نفسية ؟ أسأل نفسى بينما علاء يبدل مجساته واحدا بعد آخر ، حتى يدخل معى من هذا المدخل الذى يجعل الأمور تبدو أكثر سهولة .

ـ كل مايحدث ويقال هنا سر لايعلمه إلا أنا وأنت .

هو أذن سر ، لم أفكر فى ذلك عندما خرجت من البيت ، وأنا ألعنه لأنه لم يسألنى أو يمنعنى من الخروج ، لماذا تركنى أكذب عندما فتحت الباب بعد أن أغلقته وقلت له :

ـ رايحة لسعاد .

اكتفى بأن يومىء برأسه ، لايشعر أن هناك سرا حقيقياً ، سرا لم أخبره به ولن أخبره إلا إذا سألنى ، ولم يسألنى أبدا .

ـ لن أترك البيت، سأبقى بداخله حتى لو تهدم فوقى .. قالت أمى .

آه . . لكم أحب أمى ، أفتقد حضنها ، لماذا لم تعد تحضننى ؟ أدرك أنها المخلوق الوحيد قبل علاء الذى يعلم اننى امرأه ضعيفة ، تغلفها قشرة صلبة قوية مثل بيتنا الذى يبدو من الخارج ، من أى واجهة

من واجهاته قوياً متماسكا ، بينما الشروخ تتمدد بداخله تتحول إلى شقوق حقيقية تشطره .. لابد أنني سأنهار ، لا جدوى ، سأنهار ، لم نعد أنا وأمي النجمة وذنبها كما كنا من قبل ، أصبحت تستمد قوتها مني ، رغم أن عينيها دوماً تقولان ..

ـ مسكينة حبيبة ، شقية بقوتها ..

بقشرتها ياأمي ، بقشرتها ،فأنا ضعيفة ، ضعيفة ، سأقف في وسط الميدان أصرخ بها أرجم حروف اسمي البيضاء المكتوبة فوق اليافطة السوداء الكبيرة ، أنا ضعيفة يامحمد ، أريدك أن تحتويني ، أن تربت على كتفي وتقول ..

ـ لا تقلقي ، سأحمل عنك كل همك ..

أنا ضعيفة يا علاء ، فلماذا تجاهلت ضعفي وبكيت أمامي وخارت صلابتك حين رأيت أختك المطلقة تتأوه من اللذة تحت صديقك ، وكأنك لا تصدق أنها امرأة ، امرأة ضعيفة تحتاج أكثر من أن تصطحبها مساء كل يوم خميس في نزهة ، أكثر من قطعة قماش صوفية في عيد ميلادها ، وكأن الذي يمتطيها ، يعلو ويكبو فوق أختك وشعرها ملفوف حول كفه ليس رجلاً وإنما صديق مجرد ، تشكو له وأنتما حول قطع الشطرنج أحباطاتك وكأنك ملك مهزوم في معارك لم تدخلها

ربما كنت مثلك عندما عرفت أن محمد يحب امرأة أخرى ، كنت أعرف ، أشعر به قبل أن يخبرني برأس مطرقة وعينين تحلقان في فراغ دائم وأصابعه تخفي ارتعاشاتها في حركة دائرية وهي تمسح زجاج نظارته، بينما تتراقص أمام عينيه صورته وهو ممدد بجوار امرأة أخرى ، يتبادلان معاً ما لا أستطيع تبادله معه ، هل أخبرها أن شفتيها أشهى من شفتي، وأن نهديها رغم صغر حجمهما ألين من نهدي ، ربما كانت ضعيفة ، تبكي بين يديه ، آه يا محمد لو تعلم كم أنا ضعيفة .

إنه مازال يحبني بطريقته القديمة ، منذ كنا في الجامعة ، وكأنني فتاه يخشى خدش حياءها ألم يشعر أبداً بأنني أنمو، أنضج، أريد المزيد، المزيد ..

اقترب موعد المقاول ، أكاد أشم رائحته التي كرائحة الروث الممزوج بروائح الأبخرة المتصاعدة من الغسيل المغلي ، لابد أنه يدور الآن حول النافورة ، يتأمل البيت ، يحسب القطع الخشبية والأسياخ الحديدية ، هدم البيت مقابل التنازل عن الأنقاض ، لن أغلق باباً أو شباكاً في هذا البيت مرة أخرى ، وهاهي طبقة جديدة ترتفع فوق الأنقاض ، أنقاض بيتي . ولكن لماذا لم يأت بعد ؟

كنت أنظر إلى الزغب الأصفر فوق شفتي محمد ، وإلى جسده الضئيل وحمرة وجهه فأشعر كم هو كبير ، أكبر مني ، رغم أننا في مدرسة واحدة وصف واحد ، إنه دوما يعرف أكثر مني عندما يتحدث مع

الصبية عن الكرة فهو يعرف أكثر مني ، عندما يتحدث عن أفلام الكاراتيه عندما يسير إلى جوارى ، فهو الأمان كله ، نقف بين بابينا ، أنا أستمع ومحمد يتحدث ، أشعر بأني أريده أن يتحدث إلى الأبد .. حتى تخرج جدتى ، تنظر إلينا وتضحك ، ثم تؤكد لأمى التى تدعو بأن ترانا عرسانا :

ـ البنت بتكبر أد شعيرة والولد أد قمحة ، حبيبة لازم تتجوز راجل كبير .

ـ أكبر من محمد يا جدتى ؟

أجيبها وأنا أتعجب كيف لا ترى محمدا كبيرا ..

لماذا لا أستطيع رفع عينىّ عن هذا الشق ؟ أنـه يجذبنـى إليه ، أغوص فيه ، أحتك بحوافه الخشنة ، أتمدد بداخله ، من السقف وحتى حافة الفراش ، ثم تطبق علىّ خشونة شقية ، لو كان علاء هنا لكنت ركضت إليه كعادتى ، ضاحكة متباكية ، باكية متضاحكة ، ليقول :

ـ مابال قطعة الحرير الناعم ؟

آه يا علاء لم أعد قطعة حرير ناعم قوى ، بل أنا أضعف من ورقة شجر جافة ملقاة على قارعة صلبة .

يجب أن أبدل ملابسي قبل أن يأتي المقاول ، هل أستطيع أن أستحم في بيت مهدد بالانهيار ، أن أدع المياه تنهمر بقوة فوق جسدي ، هل أستطيع أن أتجول بملابسي الداخلية في بيت تملأه الشقوق ، أن أقف أمام دولاب ملابسي أجرب ثوباً آخر ..

سأنزل إلى أمي حتى تقابل المقاول معي .. لا .. بل ألقاه وحدي ..

قلت لعلاء يوماً .. إنه الرجل الذي أرادته جدتي زوجاً لي ، ظننته سيتعجب أو يقول كيف وقد ماتت جدتي قبل أن تراه .. ولكنه تابع ، دون تفكير ربما :

ـ وكيف تريدينه أنت ؟

لماذا قلت آآآه قوية شرخت صدري ، ثم لماذا ارتبكت عندما وضع كفه الكبيرة المثلثة فوق صدري ؟ لماذا لم أقل له آه يا علاء ، الشرخ يلتئم ، تمنيت أن أحيك كفه بخيوط من قنب .. إلى الأبد .. ولم أفعل .

ومازلت في فراشي ، ذراعاي تحوطان ساقي ، ركبتاي تضغطان صدري ، أتحسس ساقيّ بأصابعي المتشابكة ، الهواء ينفذ من الشق مسددا إلى كياني كله ، أزداد تقوقعاً داخل نفسي ، إنه الشتاء يأتي فجأة .

الفـهـرس

١

٢

كتبت قصص هذه المجموعة خلال عامى

٩٢ - ٩٣

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة

مهندس / إبراهيم السيد البهنساوى

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٦١٥٥ س ١٩٩٤ - ١٥٠٠